الفصل الأول

روسيا : جغرافيًا وتاريخيًا

يعتبر **راسبوتين** Raspotine رمزا لفساد كل أوجه الحياة فى روسيا القيصرية فى مطلع القرن العشرين مما كان مؤذنا بنهاية حكم القياصرة الروس من أسرة رومانوف Romanov فى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وكان سببا فى نجاح الثورة البلشفية الشيوعية فى روسيا فى عام ١٩١٧م . ولقد صدرت كتب كثيرة وروايات ومسرحيات وأفلام عديدة عن حياة راسبوتين مما جعل من فلاح روسى شخصية تاريخية من أشهر شخصيات التاريخ الحديث .

ولو جاز لنا أن نوجز حياة راسبوتين فى ثلاث كلمات هى موجز حياة البشر باعتبار أن حياة البشر تتلخص فى أنهم ولدوا وعاشوا وماتوا ، لقلنا : إن جريجورى إفيمى راسبوتين Gregory Efimy Raspotine «ولد» فى قرية بوكروفسكوى Pokrovskoe وهى إحدى القرى فى إقليم توبولسك Tobolsk الذى يقع على نهر توبول Tobol عند التقائه مع نهر إرتسك Ertesk فى الجزء الشمالى من وسط روسيا فى يوم ١٠ يناير عام ١٨٦٩م . «وعاش» راسبوتين حياة غريبة الأطوار . و«مات» مقتولا بطريقة غير مألوفة بين القتلى فى عام ١٩١٦م فى مطلع الثورة الشيوعية البلشفية فى روسيا ، وكأنما كانت حياته العجيبة الفاسدة الشاذة فى أعاجيبها ، الموغلة فى فسادها علامة على نهاية عصر فاسد من الرأسمالية الروسية القيصرية بكل عيوبها ومفاسدها ، وبداية عصر أشد هولا وفسادا من الشيوعية الروسية بكل عيوبها ومفاسدها مما يدل دلالة قاطعة على فساد النظم الاقتصادية والسياسية والدينية والاجتماعية من صياغة البشر سواء كانت رأسمالية موغلة فى الحرية الفردية فى الملكية لمصادر الثروة ، أو كانت شيوعية ماركسية لينينية موغلة فى الملكية الجماعية أو ملكية الحكومة لمصادر الثروة ، مادامت هذه النظم الرأسمالية أو تلك النظم الشيوعية من صياغة البشر .

ولكن حياة البشر لا تنحصر عادة فى هذه الكلمات الثلاث التى تقول : إن الناس ولدوا وعاشوا وماتوا .

ولدوا . نعم ، ولدوا ، ولكن ، فى أى مجتمع ؟ وفى أى بيئة ؟ وفى أى تراث ولدوا ؟ هذا المولود ، مَنْ أبواه ؟ ماذا كان أبواه ؟ وما هى ظروف حياة الناس الذين ولد ذلك الوليد بينهم من الناحية الجغرافية والتاريخية والسياسية والاقتصادية والدينية عندما ولد بينهم هذا الوليد أو ذاك ؟

عاشوا . نعم ، عاشوا . عاش من قَدَّرَ الله لهم الحياة من البشر حتى استوفى كل منهم أجله ، ولكن كيف عاش كل منهم ؟ وماذا كانت مكونات فكره وخلقه ونفسيته وشخصيته ؟ وكيف كانت سماته وصفاته الجسمية والعقلية ؟ وما هى الأحداث التى صادفها فى حياته وكان لها تأثير فى مسار حياته ؟

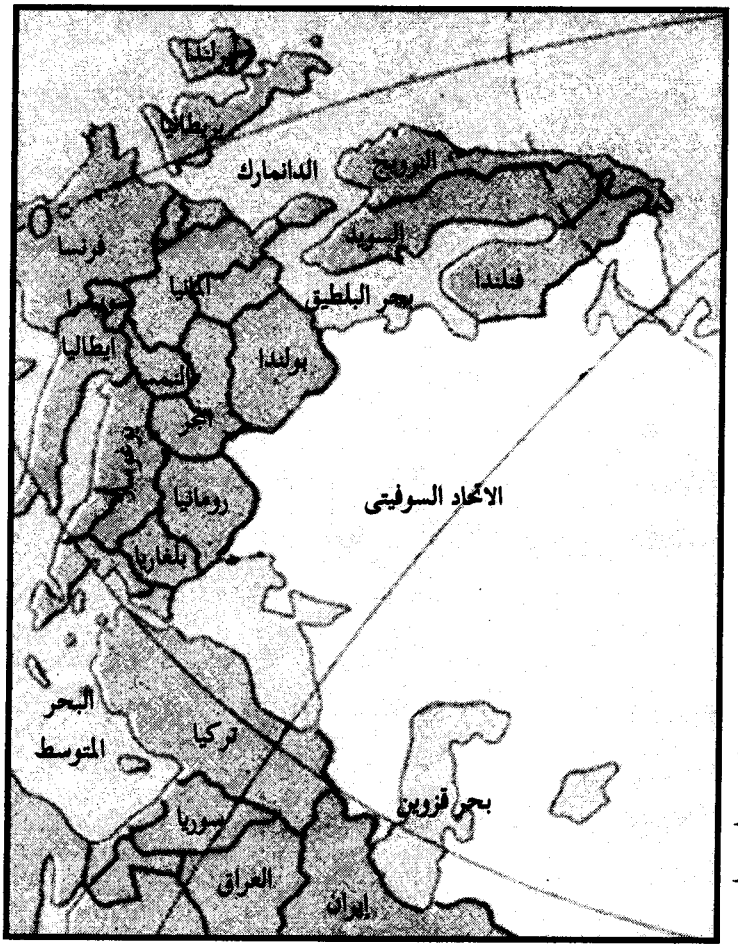

(دول غرب وجنوب روسيا)

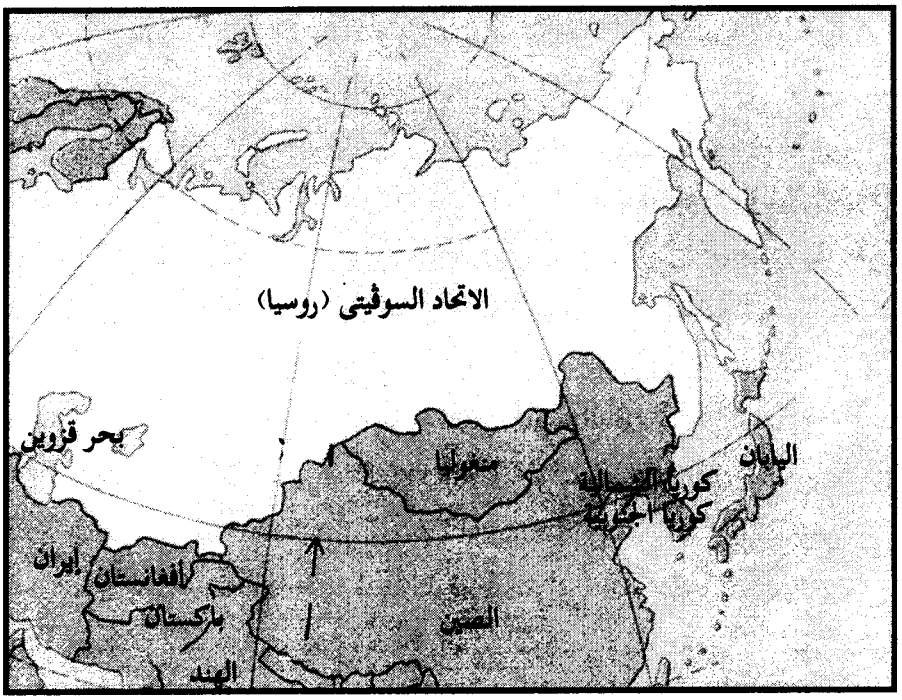

(دول شرق وجنوب روسيا)

ماتوا . نعم ، ماتوا . كل نفس ذائقة الموت . الموت يقهر كل البشر ، ولم يستطع إنسان أن يقهر الموت أبدا . ولكن كيف ماتوا ؟ ولماذا ماتوا ؟ ما هو سبب موتهم ؟ وما كيفية موتهم ؟ هل كانت الوفاة طبيعية ؟ أم كانت قتلا ؟ هل كان القتل غيلة ؟ أم كان القتل بموجب حكم قضائى صادر عن سلطة حاكمة ؟ هل كان الحكم بالقتل إنْ وُجدَ عادلا ؟ أم أنه كان حكما ظالما ؟ هل تمت محاكمة ؟ أم صدر الحكم دون محاكمة ؟ هل كانت المحاكمة عادلة ؟ أم أنها كانت ظالمة ؟

وهكذا بين الميلاد والوفاة تزخر حياة كل إنسان بالتفاصيل . ولابد ، وحياة كل إنسان تجرى على هذا المنوال من أن تعرض بشيء من الدراسة لجغرافية وتاريخ وحضارة ودين واقتصاد وسياسة الحياة الروسية التى عاش فى كنفها راسبوتين منذ مولده فى عام ١٨٦٩م حتى مصرعه فى عام ١٩١٦م .

روسيا Russia التى أصبحت تعرف فى التاريخ المعاصر باعتبار أنها الاتحاد

السوفيتى The Soviet Union أو باعتبار أنها اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتركية The Union Of Soviet Socialist Republics التى يرمز لها اختصارا بالحروف اللاتينية باعتبار أنها (USSR) هى واحدة من أكبر الدول من حيث المساحة وعدد السكان فى العالم . وهى تمتد من وسط أوروبا إلى شرقى آسيا ، ولا يفصل بينها شرقا وبين أمريكا الشمالية إلا أميال قليلة ، ويبلغ فرق التوقيت بين شرق وغرب روسيا إحدى عشرة ساعة . وهى تمتد شمالا لتصل إلى القطب الشمالى ويحيط بها من الشرق أقطار أوربية كثيرة منها فنلندا Fin-land والسويد Sweden حول بحر البلطيق Baltic Sea وبولندا Poland وألمانيا Germany وتشيكوسلوفاكيا Czechoslovakia والنمسا Austria وهنغاريا Hun-gary ويوغوسلافيا Yogoslavia ورومانيا Romania وبلغاريا Bulgaria ومن وراء هذه الدول بطبيعة الحال ومن حيث الموقع الجغرافى نجد فرنسا France وإيطاليا Italy واليونان Greece مما يعنى أن الأراضى الروسية تتصل اتصالا وثيقا بكثير من دول أوربا مما جعل لدولة روسيا شأنا يذكر على الدوام فى تاريخ أوربا. ومحاولة كل من نابليون بونابرت ثم أدولف هتلر لغزو روسيا محاولتان لهما شأن كبير فى التاريخ ، كما أن احتلال روسيا لشرق ألمانيا وبولندا ورومانيا له شأن كبير فى التاريخ الحديث والمعاصر .

ويحد روسيا جنوبا البحر الأسود Black Sea وتركيا Turkey ومن ورائها بطبيعة الحال نجد كلا من سوريا Syria والعراق Iraq ثم إيران Iran وبحر قزوين Caspian Sea ثم أفغانستان Afghanistan ومن ورائها الهند India ثم الصين China ومنغوليا Mongholia ويحدها شرقا المحيط الهادى Pacific Ocean واليابان Japan .

ومن ذلك يتضح أن مساحة روسيا إنما هى مساحة ضخمة ، وحدود روسيا الجغرافية تتصل بحدود كثير من الدول مما جعل تاريخ روسيا تاريخا حافلا بالأحداث التاريخية والحروب الكبرى والمداخلات العسكرية والسياسية والاقتصادية والفكرية مع كثير من دول العالم فى قارة أوربا وفى قارة آسيا على حد سواء .

ومعظم المياه ، مياه البحار التى تلاصق وتلامس الأراضى الروسية إنما هى مياه باردة تتجمد فى فصل الشتاء . ومن هنا يمكن القول بأن المناخ السائد فى روسيا إنما هو مناخ بارد قاس فى البرودة فى معظم أرجاء الأراضى الروسية فى معظم فصول السنة مع تناقض كبير فى مناخ الصيف عن مناخ الشتاء ، وكم تدخّل مناخ الشتاء الروسى فى أحداث التاريخ الروسى ! فى الشتاء يهجم الصقيع وتهجم الثلوج على الأراضى الروسية ، ولا تزول بسرعة بل تظل جاثمة على معظم الأراضى الروسية مدة طويلة تجعل فصل الربيع قصيرا جدا ، ليأتى الصيف حارا وعاصفا . وفوق خط عرض خمسين درجة شمالا ، يطول فصل الشتاء إلى أقصى مدى عن فصل الصيف . وتصل درجة الحرارة شتاء إلى ٩٤° تحت الصفر وإن كانت بعض المناطق حول بحر قزوين وبحر البلطيق أكثر اعتدالا فى مناخها المشوب ببعض الدفء وكذلك بعض المناطق المتأخمة للبحر الأسود ، كما يوجد بعض الدفء فى الموانى المطلة على المحيط الهادى فى مواجهة الجزر اليابانية .

وتحت إقليم التندرا المتجمد معظم العام فى أقصى شمال روسيا توجد سهول واسعة دائمة الخضرة من مختلف أنواع الأشجار والنباتات . وتوجد غابات شاسعة تمتد من شرق سيبيريا حتى شمال بلاد الصين .

ويعيش على أرض روسيا حوالى مائة جنسية ولكل جنسية لغة وثقافة خاصة بها ؛ بدءا من اللغة الفنلندية إلى المنغولية إلى التنجيوزية إلى القوزاقية إلى الكازخانية إلى اليزبكية إلى التركمانية بالإضافة إلى لغات وثقافات أخرى . ويضمها جميعا نمط من الثقافة وأنماط المعيشة التى يغلب عليها التشابه إلى حد كبير بفضل جهود الحكومة المركزية بعد الثورة البلشفية فى فرض التجانس على كل هذه الشعوب والقوميات الكثيرة إذ لا يعترف النظام الشيوعى بأى استقلال لأية قومية من القوميات بل يهدف النظام الشيوعى إلى صهر القوميات كلها وإخضاعها جميعا للشيوعية العالمية ، وهو ما فشلت فيه الشيوعية فشلا ذريعا لأنه يخالف طبيعة الشعوب كما خلقها الله مختلفة فى لغاتها وألوانها مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ

﴿وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢)﴾ [الروم: ٢٢] . ولقد فشل النظام الشيوعى بالفعل وبالرغم من كل وسائل القمع فى إزالة الفروق بين القوميات واللغات المختلفة فى الاتحاد السوفيتى ، مما أفضى إلى انهيار الروابط المصطنعة بين القوميات المختلفة بعد ثورة البريسترويكا بقيادة الرئيس الروسى جورباتشوف ، وسعت كل قومية من قوميات الاتحاد السوفيتى إلى الاستقلال فى العقدين الأخيرين من القرن العشرين ، ويحاول الاتحاد السوفيتى سابقا قهر بعض القوميات الإسلامية فى جنوب شرق روسيا لكى يحول دون استقلالها بالقوة المسلحة ،كما يحاول ذلك بالنسبة للقومية الشيشانية على سبيل المثال لا الحصر . ولكن محاولات الاتحاد السوفيتى هذه محكوم عليها بالفشل إن عاجلا أو آجلا لأنها محاولة من البشر لتحدى إرادة الله ، والله غالب على أمره .

يبلغ تعداد سكان روسيا حوالى ٣٠٠ مليون نسمة كانت موزعة فى خمس عشرة جمهورية لكل منها لغتها وحكومتها . وأكبر الجمهوريات السوفيتية هى جمهورية روسيا وتبلغ مساحتها حوالى ١٧ مليون كيلومتر مربع ويبلغ تعداد سكانها حوالى ١٤٥ مليون نسمة .

وتعتبر أوكرانيا هى ثانى أضخم الجمهوريات الروسية وتمتد أراضيها حتى تصل إلى البحر الأسود ، وهى من أخصب الأراضى الروسية والمصدر الرئيسى للقمح والخضراوات ، وتتفاوت باقى الجمهوريات الروسية فى المساحة وعدد السكان .

وتبلغ مساحة الأراضى الروسية الصالحة تماما للزراعة ما لا يقل عن خمسة ملايين من الكيلومترات المربعة حيث يزرع القمح والقطن والأرز والفواكه المختلفة . ومنذ خمسين عاما كانت روسيا تعتبر بلاد الفلاحين ، ولكن الصناعة ازدهرت فى روسيا حديثا وأصبح حوالى نصف السكان فى روسيا يقيمون فى المدن ويحترفون الصناعة والتجارةوفى أعقاب الحرب العالمية الثانية كانت روسيا تعتبر إحدى القوتين الأعظم فى السياسة العالمية إذ كانت روسيا تنافس الولايات

المتحدة الأمريكية فى امتلاك أسباب القوة الإنتاجية والعسكرية والنفوذ فى السياسة العالمية . وفى العقدين الأخيرين من القرن العشرين انهار الاقتصاد الروسى وكافة النظم الروسية وإن بقيت روسيا فى مصاف الدول الكبرى وذلك نظرا لامتلاكها الأسلحة الذرية الوفيرة مما أبقاها موجودة فى نطاق الدول الكبرى حتى الآن ، ولكنها تخلت تماما عن منافسة ومزاحمة الولايات المتحدة الأمريكية فيما يتعلق بمركز الصدارة فى السياسة الخارجية العالمية إذ أصبحت روسيا فى حاجة ماسة إلى أن تتلقى من أمريكا ومختلف الدول الرأسمالية القروض والمساعدات المالية لرأب الصدع فى اقتصادها الذى أصيب فجأة بالانهيار الشديد على الرغم من وجود وفرة من المعادن والبترول والمواد الخام والصناعات الثقيلة فى روسيا .

وبتأمل جغرافية روسيا يبرز لنا بالضرورة سؤال هو : ما الذى وحد كل هذه الأراضى الشاسعة لهذه الجمهوريات والقوميات فى دولة روسية واحدة تمتد أراضيها كل هذا الامتداد فى قارة أوربا وفى قارة آسيا على حد سواء ؟

إن الوحدة الاستراتيجية لأراضى الدولة هى التى تقدم لنا الإجابة المقنعة لهذا السؤال . والاستراتيجية مأخوذة من الكلمة الإنجليزية stratagem وهى تعنى(*) الخطة الحربية . والمكان الاستراتيجى هو المكان الذى ينظر إليه بعين الاعتبار عند وضع الخطط الحربية مثل وجود سلسلة من الجبال أو وجود نهر أو بحر أو أراض منخفضة تتحكم فيها أراض مرتفعة أو وجود أراض سبخة أو صحراوية قاحلة أو أراض تغمرها الأمطار أو الجليد فى فصل من فصول السنة ، والنظر فى مثل هذه الاعتبارات هو ما يطلق عليه مصطلح الاستراتيجية ، وإن كان هذا المصطلح قد امتد ليشمل كافة الاعتبارات ذات الأهمية فى مسار الخطط الحربية مثل مادة البترول أو القمح عندما تكون هذه المادة أو تلك ذات تأثير حاسم بالنسبة للأداء العسكرى للدولة فى حرب هجومية أو دفاعية .

ومن تعريفنا للاستراتيجية على النحو المشار إليه يمكن لنا أن نفهم المقصود بالوحدة الاستراتيجية لأراضى دولة من الدول أو قومية من القوميات . الوحدة

(*) فى القاموس : Astratgem is a military plan

الاستراتيچية لأراضى دولة من الدول أو قومية من القوميات تعنى أولا عدم وجود عوائق طبيعية ذات بال تفصل جزءا من أراضى الدولة عن الجزء الآخر ، وتستطيع أن تمشى بسيارة أو دبابة فوق أراضيها من أقصاها إلى أدناها ، وهى تعنى ثانيا ضرورة عدم انفصال أراضٍ ذات أهمية اقتصادية أو غذائية أو عسكرية عن بقية أراضى الدولة ، وهى تعنى ثالثا ضرورة وجود منافذ للمواصلات البرية والبحرية من وإلى أراضى الدولة ، وهى تعنى رابعا استحالة وجود قومية معادية ومختلفة اللغة والحضارة بحيث تمنع الاتصال بين أراضى الدولة .

وامتداد واتساع مساحة روسيا نزولا على مقتضيات الوحدة الاستراتيچية لأراضى الدولة ليس بدعا بين الدول . إنه موجود بالنسبة للقومية العربية منذ فجر الإسلام . ولم يكن من المعقول أن يظل نبى الإسلام ﷺ قابعا فى شبه الجزيرة وهى مبعثرة بين القبائل . استطاع النبى ﷺ أن يوحد بين كل قبائل ومدن شبه الجزيرة العربية ، وأن يخضعها لدولة الإسلام وحكومته ليشمل نفوذها كل شبه الجزيرة العربية من بلاد الفرس شرقا (الخليج الفارسى أو بحر العرب) حتى فلسطين وبلاد الشام شمالا واليمن جنوبا ومصر والشمال الإفريقى حتى المحيط الأطلسى غربا . وكان النبى ﷺ هو الذى جهز وقاد بنفسه جيشا كبيرا من المسلمين فى غزوة تبوك (سنة ٩ هـ = سنة ٦٣٠م) وفرض الجزية على أهل تبوك ودومة الجندل إذ كان النبى ﷺ قد علم بأن الروم يحشدون جنودهم لمهاجمة شبه الجزيرة العربية من تلك التخوم ، وكان هرقل إمبراطور الرومان موجودا بأرض الشام فى مدينة حمص يجهز هذه الحشود الرومانية ليدفع بها للقضاء على المسلمين فى شبه الجزيرة العربية ، ومن المعروف أن النبى ﷺ كان قد تنبأ أثناء حفر الخندق حول المدينة المنورة فى غزوة الأحزاب بأن المسلمين سيفتحون بلاد فارس وبلاد الشام ومصر ، وهو ما حققه المسلمون بالفعل بعد انتقال النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى فى زمن وجيز ليمتد نفوذ دولة المسلمين من الخليج إلى المحيط وهو الشعار الذى لا يزال يتردد على ألسنة المسلمين عندما ينشدون «من الخليج الثائر إلى المحيط الهادر» وذلك نزولا على مقتضيات

الوحدة الاستراتيجية للأراضى العربية ، وهى الوحدة التى لا يحول دون تحققها فى حياتنا المعاصرة سوى أثرة الحكام ودسائس ومؤامرات المستعمرين ووجود دولة إسرائيل .

ومفهوم الوحدة الاستراتيجية مفهوم أيضا ، ومتحقق فعلا بالنسبة لشبه جزيرة الأناضول أو آسيا الصغرى إذ تشغله تركيا ، وهو متحقق كذلك فى الجزر البريطانية وأراضى فرنسا وألمانيا واستراليا والصين واليابان وفى معظم أجزاء العالم الذى تسيطر على كل جزء يتميز بخاصية الوحدة الاستراتيجية لأراضيه دولة من الدول أو قومية من القوميات .

وليس لدينا معلومات كثيرة عن كيفية توحيد أراضى روسيا منذ أكثر من ألف عام مضت . والأرجح أن سكان روسيا كانوا يعيشون فى تجمعات بشرية صغيرة متفرقة . وكانت أراضى هذه التجمعات الروسية الصغيرة المتفرقة عرضة على الدوام لغزوات قبائل الهون والمغول من جنوب وشرق روسيا ، ولغزوات الوندال والڤايكنج من شمال أوربا التى كانت تجتاح الأماكن المعمورة ذات الثراء الزراعى فى شمال ووسط وغرب روسيا . وكانت الأراضى الروسية عرضة دائما لغزوات تجتاحها من آسياومن أوربا على حد سواء مما دفع بالسكان الأصليين فى روسيا إلى ضرورة الاتحاد فى دولة قوية كبيرة تستطيع أن تدفع عن الأراضى الروسية غائلة الغزوات التى لم يكن غرضها سوى النهب والسلب دون البقاء والاستقرار فوق الأراضى الروسية .

ولقد كانت كييڤ Kiev التى تقع جنوب غرب موسكو على نهر الدنيبر Denieper River شمالى البحر الأسود Black Sea فى جنوب غرب روسيا هى أول عاصمة لدولة روسيا .

وفى عام ٨٨٢م تقدمت جيوش الڤايكنج بقيادة زعيم من زعماء الڤايكنج يدعى «**أوليج**» نحو العاصمة الروسية كييڤ ، واستطاع دخول المدينة وقام جنوده بنهب كل ما يمكن نهبه فيها ولكن «أوليج» استطاع أن يبسط نفوذه على مناطق أخرى مجاورة لمدينة كييڤ .

وتصادف أن تزوج أحد أحفاد أوليج حاكم كييف من فتاة مسيحية ، واعتنق الديانة المسيحية ثم فرض الديانة المسيحية على أفراد شعبه الذين كانوا يدينون بالوثنية ، ولم تكن معرفة مبادئ المسيحية ضرورية بأى حال من الأحوال لدى أولئك الوثنيين فى جنوب غرب روسيا ، بل كان من الضرورى فقط أن يعلنوا اعتناقهم للمسيحية وإلا قطعت السيوف رقابهم .

وازدهرت مدينة كييف من جراء ضم كثير من المدن والأقاليم ذات الأراضى الخصبة إليها ، وكان ازدهارها وثراؤها مغريا لكل القوى العسكرية المحيطة بها لكى تهاجم مدينة كييف مرة تلو الأخرى مما اضطر حاكمها إلى الانتقال شمالا للإقامة فى مدينة فلاديمير فى عام ١١٦٩ م .

هكذا كان القايكنج يهاجمون الأراضى الروسية من الغرب والجنوب وكانت الجيوش الآسيوية أيضا تهاجم الأراضى الروسية من الشرق والجنوب .

وفى عام ١٢٣٨م اكتسح جيش يقوده أحد أحفاد القائد المغولى چنكيزخان الأراضى الروسية الصالحة للزراعة كلها ، ودخل الجنود المغول كييف وفلاديمير مما اضطر الروس إلى أن ينقلوا عاصمتهم إلى مدينة موسكو فى ظل الاحتلال المغولى للأراضى الروسية . وكان ظهور مدينة موسكو لتكون عاصمة للحكم المغولى فى روسيا بعد حوالى ٣٠٠ سنة من غزو المغول للأراضى الروسية (١٥٣٨م) .

وكان المغول قد اعتادوا أن يُنصبوا واحدا من كبار الملاك الروس ليكون حاكما على إقليم من أقاليم روسيا ، على أن يرأس أولئك الحكام الإقليميين حاكم روسى موال للمغول فى العاصمة موسكو لكى يجمع لهم الضرائب المفروضة من المغول على مختلف الأقاليم الروسية . وبرز من بين حكام موسكو واشتهر أحد الحكام استحق أن يطلق عليه لقب «**إيڤان الرهيب**» فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى .

كان «إيڤان الرهيب» طاغية مستبدا قاسيا يفرض على الروس الضرائب الباهظة التى لا تبقى لهم ما يكفى لسد رمقهم ، ويستخدم أعوانه القتل

والتعذيب والطرد من الأراضى الزراعية ، وإعطاءها لجنودهم بقوة السلاح إذا عجز الفلاحون الروس عن دفع الضرائب الباهظة التى كان يفرضها جنود وزبانية «إيڤان الرهيب» عليهم . ولا يزال حكم «إيڤان الرهيب» ماثلا فى أذهان الروس يضربون به المثل لما يصيبهم من الجور والعسف والاستبداد وفرض الضرائب الباهظة على الفلاحين الذين كانوا يشكلون غالبية الشعب الروسى آنذاك ، كما نضرب المثل عندنا بحكم «قراقوش» .

وارتقى العرش الروسى فى موسكو بعد إيڤان الرهيب ابنه «فيودور» الذى ظل على عرش روسيا لمدة أربعة عشر عاما (١٥٨٤ - ١٥٩٨م) ، ولكنه كان ضعيفا محدود السلطات التى استبد بها أحد كبار الإقطاعيين الذى كان وزيرا لأبيه إيڤان الرهيب . وكان هذا الوزير الإقطاعى هو «بوريس جودونوف» لمع نجمه وازداد نفوذه فى شيخوخة إيڤان الرهيب . ولم يلبث بوريس جودونوف أن أعلن نفسه قيصرا لروسيا بعد وفاة فيودور ، ولكنه كان مكروها بسبب استيلائه على الحكم بطريقة غير مشروعة إذ انه كان مجرد وزير ولم يكن سليل الأسرة الحاكمة فى روسيا آنذاك كما أنه كان قد قتل شقيق فيودور لكى يثب على العرش .

وعلى الرغم من محاولات بوريس جودونوف الإصلاحية لكسب محبة الشعب إذ كان مطلعا على مظاهر التقدم فى الدول الأوربية التى كان قد زارها وتعلم فى معاهدها فى شبابه مما حدا به إلى استقدام الأطباء والمدرسين والضباط الألمان والفرنسيين والنمساويين لتطوير روسيا إلا أن الروس ظلوا يمقتونه ويكرهونه ، ولكنه استمر فى فرض المزيد من الضرائب على الفلاحين لكى يتمكن من تطوير بلاده ، وبناء كثير من المدارس والمستشفيات والحصون وتطوير أسلحة الجيش الروسى ، وكان الفلاحون هم الذين يدفعون ثمن ذلك كله فازدادوا غضبا وسخطا وثورة على كافة أوضاع روسيا وعلى كبار الإقطاعيين ، والزعماء السياسيين ، وبلغ السخط مداه فترك كثير من الفلاحين أراضيهم دون أن يفلحوها وانتقلوا من المقاطعات والأقاليم التى كانوا يعيشون فيها بعد آبائهم

وأجدادهم إلى أراض أخرى هربا من دفع الضرائب المطلوبة منهم حيث كانوا يقيمون . وكانت هجرة الفلاحين إلى إقليم آخر هى السبيل الوحيد للخلاص مما كان يثقل كاهلهم من الضرائب .

وانخفض الدخل القومى فى روسيا نتيجة لذلك ، واستحكمت فى روسيا أزمة اقتصادية ، وانتشرت الجريمة وعمت الناس روح الاستهانة بالقانون ، وشكل الفلاحون عصابات للسطو على أموال ومواشى غيرهم من الفلاحين الكادحين . وكانت قوافل التجارة تهاجم باستمرار ، وطمع حكام بولندا على وجه الخصوص فى حكم روسيا والسيطرة على الشعب الروسى ، فوجدنا الأمير البولندى ديمترى يغير على موسكو وينضم إلى جيشه رجال العصابات الروسية ، وتواطأ معه كبار الملاك عسى أن ينقذ البلاد من الفوضى ، ولكنه استمر فى فرض الضرائب الباهظة مما أحنق عليه كبار الملاك الروس فقتلوه .

وفى عام ١٦٠٩م أغار أمير بولندى آخر هو «**سيجسموند**» على موسكو الذى تفاوض مع كبار الملاك الروس على تنصيب ابنه «لافلاس» على عرش روسيا ، ولكن كبار الملاك الروس لم يلبثوا أن ثاروا على «لافلاس» الذى اضطر إلى الفرار من بقايا جنوده البولنديين إلى بولندا .

واتفق رأى كبار الملاك الروس على تنصيب ابن أحد كبار الملاك الروس «**ميشيل رومانوف**» على عرش روسيا ، وكان صبيا صغيرا لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره سنة ١٦١٣م عندما أجلسوه على عرش روسيا . وكانت هذه هى بداية حكم أسرة «رومانوف» فى روسيا الذى استمر حوالى ثلثمائة عاما حتى قضت عليه الثورة الشيوعية فى عام ١٩١٧م .

وتمكن الروس تحت حكم القياصرة من أسرة رومانوف من توحيد الأراضى الروسية كما نعرفها الآن لاهتمامهم ببناء جيش قوى قوامه الضباط من النبلاء الروس أبناء كبار الملاك والجنود من الفلاحين الروس . وكان القياصرة الروس يرسلون أبناء النبلاء إلى ألمانيا والنمسا وفرنسا للحصول على مختلف العلوم بوجه عام ، وللحصول على الخبرات العسكرية بوجه خاص . وبالاعتماد على

موارد روسيا الضخمة ، وعلى الضباط المحترفين للعمل العسكرى من أبناء النبلاء الروس ، وعلى وجود أعداد كبيرة من الجنود الروس من أبناء الفلاحين الأشداء السواعد من جراء عملهم وعمل آبائهم فى أعمال زراعة الأرض ، كان لدى الروس باستمرار جيش كبير ذو بأس شديد تمكن من الدفاع عن الأراضى الروسية ضد الغزاة من كل جانب بما فى ذلك جيش نابليون بونابرت فى عام ١٨١٢م وكذلك جيوش ألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية .

وكانت روسيا تحاول باستمرار أن توسع أراضيها غربا نحو بولندا والنمسا وتشكوسلوفاكيا ورومانيا وفنلندا وجنوبا نحو الإيالات التركية لكى تصل إلى المياه الدافئة ، وكانت ألمانيا وبريطانيا وفرنسا تجتهد فى حرمان روسيا من مثل هذا التوسع إلى حد مشاركة الضباط الألمان فى الجيش التركى كمستشارين وإلى حد اشتراك قوات عسكرية بريطانية مع الجيش التركى فى حروبه الدفاعية ضد هجمات الجيش الروسى المتكررة . وإذا كانت روسيا قد استطاعت السيطرة على كثير من الإيالات التركية فى آسيا مثل التركمانستان وبلوخستان وأوزبكستان وطاچيكستان وقازاقستان فى جنوب شرق روسيا ، فلم تسمح الدول الأوربية وعلى رأسها بريطانيا أن تسيطر روسيا على مضيق البوسفور والدردنيل لكى تخرج إلى المياه الدافئة فى البحر الأبيض المتوسط أبدا .

ويهمنا بعد تقديم هذه اللمحات الموجزة عن جغرافية وتاريخ روسيا أن نوجز أيضا الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية للدولة الروسية قبل الثورة الشيوعية فى عام ١٩١٧م ليكون لدينا فكرة عن البيئة التى عاش فيها بطلنا **راسبوتين** الذى نعرض بالدراسة لحياته ومصرعه .

ولقد سبق أن ذكرنا أن المسيحية كانت قد دخلت إلى روسيا عند ما تزوج أحد القياصرة الروس ، وهو حفيد أوليج من فتاة مسيحية فى القرن العاشر الميلادى ، وأجبر الشعب الروسى تحت حكمه على ترك الوثنية ، واعتناق المسيحية بحيث أن كل روسى لا يعتنق المسيحية كان يقتل أو يطرد خارج روسيا.

وهكذا أقبل الروس على اعتناق المسيحية خوفا من القتل وليس عن اقتناع بالعقائد المسيحية ودون أى معرفة بها . ولا يهم السلطات المسيحية فى الغالب الأعم سوى أن يعتنق أفراد الشعب الديانة المسيحية دون ضرورة الإلمام بعقائدها باعتبار أنها أعقد من أن يفهمها عامة الشعب . حسب المسيحى فى أى شعب مسيحى أن يكون مسيحيا وأن يذهب إلى الكنيسة فى المناسبات المسيحية وأن يدفع النذور للكنيسة عند تعميد الأطفال وعند الوفاة لأحد الأقارب وعند الزواج، وفى المناسبات الدينية والأعياد الدينية وأن يتعصب دائما للدين المسيحى، أما تفاصيل العقائد المسيحية فالمفروض بطبيعة الحال أنه لا يعرفها إلا رجال الدين المسيحى المحترفون.

وبعد ثورة **كوبرنيكوس وجاليليو** العلمية ومعارضتهما لمعتقدات الكنيسة فى مجال علم الفلك ومجاهرة كل منهما أن الأرض هى التى تدور حول الشمس، وأن الشمس ثابتة والأرض هى التى تتحرك حول الشمس وحول محورها ، اهتزت سلطة الكنيسة علميا وسياسيا إلى حد كبير وظهرت البروتستانتية فى ألمانيا والكالفينية فى بريطانيا لكى تنضم هاتان الحركتان إلى المذهب الأورثوذكسى فى معارضة تعاليم الكنيسة الكاثوليكية فى روما وباريس . وأصبح المذهب الأورثوذكسى هو المذهب السائد فى روسيا إذ تسللت المسيحية إلى الأراضى الروسية من آسيا الصغرى التى كان يسود فيها المذهب الأورثوذكسى المعارض للمذهب الكاثوليكى . وعندما أصاب الضعف الإمبراطورية العثمانية كانت فرنسا هى حامية الرعايا الكاثوليك ، وكانت روسيا تفرض حمايتها على الرعايا الأورثوذكس فى سائر أقطار الإمبراطورية العثمانية التى أصبحت تعرف باعتبار أنها الرجل المريض ، ولكن الشعب الروسى فى مجمله لم يكن يعرف من المسيحية إلا أنها الدين الذى ينتمى إليه الروس .

وكانت روسيا تعتمد فى اقتصادياتها على الزراعة فى سهوب روسيا الواسعة ، وكانت الأراضى الزراعية فى روسيا فى حوزة عدد قليل من كبار الملاك ، وعندما كانت بعض المصانع تقام على الأراضى الروسية كان كبار ملاك

الأراضى هم القادرون على بناء وامتلاك المصانع بطبيعة الحال مما جعل فئة كبار ملاك الأراضى تسيطر على الزراعة والصناعة وجعل معظم أبناء الشعب الروسى يعانون قسوة الفقر والفاقة وبؤس الحياة ومشقاتها على نحو رهيب .

ولعل الأدب الروسى هو السجل الحقيقى الذى يوضح لنا بؤس وشقاء أغلبية الشعب الروسى العاملين فى مجال الزراعة والصناعة وطغيان كبار الملاك الروس للأراضى وللمصانع فى روسيا ، كما يتبدى ذلك فى كتابات الأدباء الروس مثل **فيودور دوستويڤسكى** فى كتابه الرائع عن «الناس الفقراء» و**ماكسيم چوركى** فى روايته الرائعة : «الأم» .

يقول **دوستويڤسكى** فى كتابه عن «الناس الفقراء Poor People» مصورا حالة فتاة فقيرة تزوجها رجل من كبار الملاك فى روسيا ويرسل إليها أحد أقاربها رسالة يقول لها فيها : «إلى أين ترحلين ؟ هل تدركين إلى أين ترحلين ؟ سأخبرك . سترحلين إلى مزرعة هذا الرجل «بيكوف» فى منطقة الإستبس . الإستبس خالية من الإنسانية مثل راحة اليد الخاوية تماما من النقود . لا حضارة ولا إنسانية هناك . لن تجدى إلا غلظة زوجات الفلاحين الفقراء لأنهم يعملون فى حقول ومزارع الأغنياء . والأغنياء عددهم هناك قليل وهم يعيشون فى عوالم أخرى ويذهبون داخل عرباتهم إلى سان بطرسبرج وموسكو وباريس لينعموا بالحضارة مخلفين وراءهم فى الإستبس البؤس والتخلف والشقاء للفلاحين الفقراء وزوجاتهم . لن تجدى فى الإستبس إلا زوجات حزينات كادحات ، زوجات الفلاحين الفقراء . حتى الأشجار ستجدينها بدون أوراق هناك . وستجدين السماء ممطرة مكفهرة وستجدين الجو شديد البرودة ، ذلك هو المكان الذى سترحلين إليه يا «ڤارنكا» وسيكون زوجك السيد «بيكوف» مشغولا بصيد الأرانب البرية» .

كبار ملاك الأراضى الزراعية عددهم قليل ، وفلاحون أُجراء لا يملكون إلا الكدح والشقاء عددهم كبير ، وهم الأغلبية الساحقة من الشعب الروسى قبل الثورة الشيوعية عام ١٩١٧ .

ويصور لنا دوستويفسكى فى كتابه عن الناس الفقراء حالة التجار وأصحاب المصانع فى روسيا عندما يقول : «فى طريقى إلى العمل أتأمل المدينة بكل دخانها وضجيجها ، وجدران منازلها العالية التى تجعلنى أحس أننى جدُّ ضئيل الحجم ضآلة مقبضة للنفس ، إذ أحس وأنا أنظر إلى العمارات الشاهقة أننى جِدُّ ضئيل الحجم ضآلة مقبضة للنفس مثل فأر صغير وأواصل المسير ...

ولو حاولنا الدخول إلى أول شقة من هذه العمارة فماذا سنجد ؟ سنرى فى ركن من أركان صالة صغيرة رطبة أحد العمال يستيقظ من النوم . ومن الممكن أنه طوال الليل كان ذهنه أسير فكرة الحذاء الذى أتلفه فى اليوم السابق. وربما كان غريبا أن نتصور أن رجلا يمكن أن يفكر طوال الليل فى مثل هذا الحذاء القديم الذى كان من المفروض أن يرمى به صاحبه فى أحد أكوام القمامة بدلا من أن يذهب به إلى هذا الرجل فلا يستطيع إلى إصلاحه سبيلا . وتزول الغرابة عندما نعرف أن الرجل إسكافى فقير ، وأولاده يرتعشون من البرد ويبكون من الجوع ، وامرأته أيضا جائعة ، ولكنها لا تبكى مكتفية باجترار آلام الجوع . ويزداد غيظها وحنقها ويضيق صدرها استعدادا للشجار مع زوجها قبل ذهابه للعمل . وهى تستعد لكى تتلقى ضرباته الموجعة المؤلمة لها ، عندما تعلنه بمطالب أطفالها من الطعام ، وليس الإسكافيون وحدهم هم الذين يستيقظون من نومهم فى مثل هذه الظروف .

وربما كانت هذه المناظر التى استطعنا أن نراها داخل شقة الإسكافى الفقير لا تهم لو لم يكن فى الطابق الذى يقيم فيه الإسكافى البائس شقة أخرى تمتد فوق شقة الإسكافى الفقير وتمتد أيضا فوق بضع شقق صغيرة أخرى مجاورة لشقة الإسكافى الفقير ويقيم فيها تاجر جلود غنى واسع الثراء . ولقد كان تاجر الجلود الغنى الواسع الثراء أيضا يحلم طوال الليل ويفكر وهو متدثر فى ثياب النوم الفاخرة التى تعلوها منامة مصنوعة من الصوف الطبيعى السميك وهو يحتاج إلى أن يتخلص ويتخفف من بعض الدفء فيطلب فتح النافذة قليلا وعدم وضع فحم أكثر فى المدفأة ... ولقد كان هو أيضا يحلم بالأحذية ولكن

بطريقة أخرى . كان يحلم ويفكر فى المكسب الكبير الذى سيحصل عليه فى الصباح عندما يقوم بتوريد صفقة ضخمة من الجلود إلى مصنع كبير للأحذية...

نحن مثل الإسكافى البائس عندما نصحو من نومنا ولسنا مثل تاجر الجلود الثرى عندما يصحو من نومه ، والغالبية العظمى من الناس فى روسيا مثل الإسكافى الفقير البائس ، وقلة قليلة من الناس مثل تاجر الجلود الثرى ! وربما كان هذا لا يهم أيضا ، ولكن المهم هو أنه لا يوجد أحد يستطيع أن يهمس فى أذن تاجر الجلود الثرى أن يكف عن قضاء مطالب نزواته وملذاته ، ومطالب نزوات وملذات جميع أفراد أسرته ليفكر قليلا فى ضرورات حياة أسرة فقيرة بأكملها ملاصقة بالفعل لمسكنه وملتحمة به على نحو لصيق وثيق ، التحام مبانٍ بمبانٍ ، حيث إن سقف مسكن الإسكافى هو أرضية مسكن تاجر الجلود الثرى الواسع الثراء» .

قلة من الأغنياء وأغلبية من الفقراء دون أى حافز دينى أو خلقى يدفع الأغنياء إلى شىء من الزكاة والصدقات التى يمكن أن تخفف من عناء وبؤس حياة الناس الفقراء ، كما نطالعها فى كتاب دوستويفسكى عن «الناس الفقراء» فى روسيا إبان حياة رجل أفاق مثل راسبوتين امتطى سطوة الشعوذة والدين لكى يصل إلى الثراء والنفوذ ولكى ينغمس فى ملذات حياة أغنى الأغنياء وذوى السلطان والنفوذ فى روسيا .